الدكتور: غازي مختار طليمات

128599

في علم اللغة

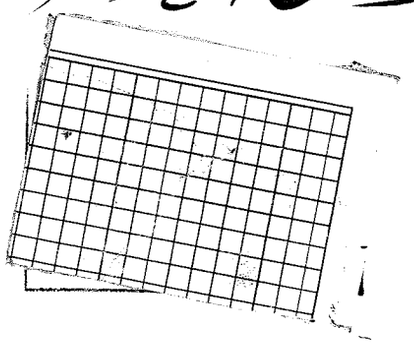

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الثانية – ٢٠٠٠

بين يدي الكتاب

لا يدّعي هذا الكتاب أنه أضاف إلى القديم المعروف جديداً غير معروف، لا يجده القارىء فيما صدر قبلُ من مؤلفات، كتبها في (علم اللغة) كبار الباحثين من قدماء ومحدثين، وعرب وأجانب. فمثل هذا الادعاء المتبجح ضرب من الغلوّ الأرعن، يكشف غروره عن عواره.

وهو في الوقت نفسه لا يسمح للتواضع المسرف أن يبخسه حقه، فيهوي به من التواضع إلى الضعة، ولا ينكر على نفسه أنه حاول — وسيان أن يصيب وأن يخطىء فيما حاول — الإفادة من السابقين واللاحقين، لعله يساور غامضة فيوضحها، وشاردة فيقربها، ويخرج من التوضيح والتقريب بجديد مفيد. وقد وقف في محاولته تلك من أعلام العلماء موقف الموفق المتلطف لا موقف الملفق المتكلف، إذ مضى يوازن ويقارن، ويحاذر ما استطاع أن يتسرّع بالحكم على العلماء لكيلا يُرمى بالتعصب للعرب على الأجانب. وأخذ على نفسه موثقاً أن يصغي إلى الخليل وسيبويه بالأذن التي يصغي بها إلى ولفنسون ودو سوسير، وأن ينظر إلى ابن جني وابن فارس بالعين التي ينظر بها إلى بلومفيلد وتشومسكي، مؤمناً بأن الصواب أحق بالأخذ كائناً من كان صاحبه، وأن الخطأ أجدر بالنبذ أياً كان الواقع فيه، مخلصاً للعلم الذي تسمى باسمه وانتسب إليه.

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ولما كانت الإحاطة بعلم اللغة الآخذ بالاتساع مطلباً عسير المنال في كتاب تحاصره نفقة الطباعة، ويقصّ جناحي مطامحه إيقاعُ العصر السريع الزاهد في التطويل والتفصيل، الكلف بالاقتصاد في الجهد والوقت فقد آثر الكتاب الاصطفاء على الإحصاء، فتخيّر من المباحث التي يدرسها علم اللغة ما يعتقد أنه أوْلى بالبحث من سواه، وأن ميدان البحث فيه يسع ما قدُمَ وما حدُث، ولا يضيق بالجدال المفضي إلى ترجيح الأصحّ على الصحيح.

عالج الكتاب أربعة مباحث خُيّل إليه أنها أولى بالمعالجة من سواها:

أولها صلة علم اللغة بغيره من العلوم اللغوية والإنسانية.

وثانيها نشأة اللغة وتطورها وانقسامها إلى فصائل، وخصّ بالاهتمام فصيلة اللغات السامية، لأنها الشجرة التي تفرعت منها العربية.

وثالثها المناهج التي انتهجها الدارسون قدماؤهم والمحدثون، وفي هذا الباب حاول الكتاب أن يضع مناهج العرب القديمة في أمكنتها من المناهج القديمة والحديثة التي انتهجها الغربيون.

ورابعها الجوانب أو الموضوعات التي يدرسها علم اللغة وأبرزها أربعة الجوانب التالية:

الجانب الصوتي، وفيه عرض الكتاب دراسة العرب للأصوات: أعضائها ومخارجها وصفاتها. وشفعها بالدراسة اللسانية الحديثة: مصطلحاتها ونظرياتها وتحليلاتها.

والجانب الصرفي، وفي هذا الجانب وضع الكتاب بين يدي القارىء أبرز المصطلحات اللسانية الحديثة، ثم انتقل إلى الصيغ الصرفية، فدرسها، ودرس ما تحمله من معاني الجنس والعدد والتعيين دراسة مقارنة. غير أنه سمح لنفسه أن يخالف عما درج عليه اللسانيون في جعلهم الزمن مقولة صرفية، إذ انتزع الزمن من الصرف، وألحقه بالنحو، أو غرسه في الخط الفاصل بين حقلي

النحو والصرف لإيمانه بأنه آخذ من كل جانب بنصيب.

وفي الجانب النحوي أوْلى الكتاب طرائق اللسانيات في تحليل المركبات الإسنادية اهتمامه الأول، فعرضها وفق أبرز الاتجاهات اللسانية: الاتجاه الوظيفي، والاتجاه التوزيعي، والاتجاه التحويلي.

وفي الجانب الرابع ـــ وهو الجانب الدلالي ـــ اتجهت الدراسة إلى الكشف عن الصلة بين اللفظ والمعنى، وإلى وضع الدلالة بين الاشتقاق والسياق، ثم إلى دراسة الظواهر الدلالية وفق النظريات القديمة والنظريات الحديثة. فتتبّعت عوامل التغير الدلالي وصوره تتبّعاً يدعم الرأي بالدليل، ويشفع الحكم بالشاهد.

ولم ينس الكتاب في عرضه ما عرض أن يكون واسع الصدر رحب الأفق شامل النظرة، يقرن لغة العرب بلغات الأجانب. وخص اللغتين الإنكليزية والعبرية بالقدر الأوفى من هذه المقارنة لشيوع الأولى بين العرب، وقربها من أذهانهم، ولانتماء الثانية إلى فصيلة اللغات السامية، وهذا الانتماء وحده يجعل العبرية أجدر اللغات السامية بالدرس المقارن، لأنها من أشبه الساميات الباقية بالعربية في المفردات والاشتقاق والصيغ والتراكيب.

وإذا كان التعصب للغة القومية حساً يخالط القلب فقد حاول هذا الكتاب أن يتجرد من الهوى، وأن يخلص للحق، وأن يجانب الأحكام الموروثة. فإن بلغ ما قصد إليه فالفضل فيه للمنهج العلمي المتبع، وإن وقع دون القصد فعذره أن الحبّ يعمي ويصم، وأن صاحب الكتاب قد يكون، من حيث لا يدري، مصاباً بما أصيب به ابن جني، وهو الإعجاب بلغة العرب، وتحول إعجابه إلى دهشة مذهلة وصفها ابن جني فقال: «إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف والرقة ما يملك عليَّ جانب الفكر». فإن استطاع فكر هذا الكتاب أن ينطلق من إسار العربية ـــ وهذا ما يدّعيه ـــ فالفضل للباحثين

المحدثين الذين وضعوا قدميه على المنهج العلمي فسار فيه . وإن بقي أسير العربية فعذره العجز عن مغالبة الهيمنة التي تفرضها العربية على عشاقها . لك عليه الإقرار والاعتذار ، وله منك النصح والتسديد .

ألهمنا الله السداد والرشاد في فهم اللغة وإفهامها ، وجنَّبنا الخطل والزلل فيما نقول ونفعل ، وجعل أعمالنا وأقوالنا خالصةً لوجهه .

د . غازي مختار طليمات

الباب الأول

علم اللغة بين العلوم

الفصل الأول

تعريف علم اللغة

أولاً ــ تمهيد

إن فهم كل علم من العلوم قديمها وحديثها مرهون بفهم المصطلحات الحاملة الناقلة لأفكاره. وأوْلى المصطلحات بالفهم والإفهام عنوانُ العلم الذي يُعدّ وعاء لما يتضمنه من موضوعات أو إطاراً لما فيهِ من أفكار. ولبلوغ هذا الفهم في ميدان علم اللغة يحسن بنا أن نحدد الدلالة أو الدلالات التي تحملها كل كلمة من هاتين الكلمتين: (علم) (اللغة) قبل الخوض في موضوعات هذا العلم أصولاً وفروعاً.

ولن يتأتّى لنا هذا التحديد على نحو دقيق ما لم نَمِزْ علم اللغة ممّا يقاربه أو يواكبه من علوم أو دراسات، لها ارتباط باللغة على درجات متفاوتة، لكنها ليست من هذا العلم، أو كان يُظن أنها منه، ثم حكم التخصّص الذي يقسم العلم علوماً حُكمهُ الصارم عليها، فماز بعض الدراسات اللغوية من بعض. وهكذا تفرّد (علم اللغة) بمباحث لا يشركه فيها علم آخر.

وأبرز الدراسات التي يمكن أن تقارب علم اللغة أو تشوبه (فقهُ اللغة)، ثم النحو والصرف، وأقلُّها مخالطة له الإملاء والخط. ولمّا كان فقه اللغة أقرب الدراسات اللغوية إلى علم اللغة، وأكثرها مخالطة له، فإننا ــ في سبيل الوصول إلى تعريف دقيق لعلم اللغة ــ نكتفي ههنا بالحديث عن الفرق بين هذين العلمين، ونبدأ بأقدمهما، وهو فقه اللغة.

ثانياً ــ معنى فقه اللغة

«الفِقه بالكسر: العلم بالشيء، والفهم له، والفطنة. وغلب على علم الدين